عبد الكريم غلاب

التفاعل بين الأديب العربي والتطور الاجتماعي

يمكن ان نؤكد ان الثورة الحقيقية التي شهدها الوطن العربي في العصر الحاضر هي ثورة اجتماعية اكثر منها ثورة سياسية واقتصادية.

واذا كان الوطن العربي قد ناضل منذ بداية القرن للتحرر السياسي فان الحرية ازدوجت فيه بالاستعمار . في الوقت الذي كانت تتحرر بعض اجزائه من السيطرة العثمانية مثلا ، كانت تقع تحت السيطرة الانجليزية او الفرنسية ،وفي الوقت الذي كان الاستعمار ينحسر عن اجزاء منه كانت بعض الاجزاء تقع تحت الاحتلال ، وفي الوقت الذي ظن الوطن العربي انه تخلص نهائيا ـ الا فلسطين ـ من الاستعمار الغربي ، جاء الاستعمار الصهيوني الغربي ليزحف من قلب فلسطين في اتجاهين يمثلان كماشة خطيرة نحو قناة السويس والجولان، وظل الاستعمار الاسباني جاثما في الصحراء المغربية وفي سبتة ومليلية وملحقاتهما .

معنى هذا أن الثورة السياسية للتحرر من الاستعمار لم تحقق بعد اهدافها ولذلك ما تزال تستغرق جهود الوطن العربي والمواطنين العرب ، وتستبد بتفكير المثقفين العرب الملتزمين الواعين .

والثورة الديمقراطية لم تحقق بعد اهدافها ، فقد كان التطور الطبيعي لاسترجاع الحكم الوطني في البلاد العربية ان يستعيد الشعب مكانته في الحكم وسيادته في الممارسة ولكن الثورة الديمقراطية اجهضت في بداية عهدها بالتزييف والتزوير والدكتاتورية المقنعة . وظلت الشعوب العربية على الهامش تحكم بغير ارادتها ولا مشاركتها .

ومعنى ذلك ايضا أن الثورة السياسية فشلت ، وظلت الشعوب العربية محجورة ، وظل المثقفون التقدميون بعيدين عن المشاركة في المعركة السياسية ، ونتيجة لذلك لم يكن هناك تجاوب ولا تفاعل بين الاديب العربي والتطور السياسي الا التجاوب السلبي الذي يعبر فيه الشاعر او القاص عن ابعاد الشعب عن ميدان المعركة . واكثر ما كان هذا التعبير بالرمز او الايحاء .

واتجه الوطن العربي الى ثورة اقتصادية ذات ابعاد اجتماعية، فكان الاصلاح الزراعي في بعض البلاد ، وكان تأميم مصادر الانتاج في بعض البلاد ، وكانت محاولة استرجاع الثروة المعدنية في بعض البلاد: البترول والغاز والفوسفاط على الاخص ، ولكن هذه الثورة لم تحقق الكثير من اهدافها . فليس المهم من الثورة هو المظهر الذي يمثله استرجاع الارض الزراعية من المستعمرين والاقطاعيين او البترول من الشركات الاحتكارية ، ولكن الهدف هو أن تبلغ الثورة اهدافها في تصنيع البلاد وتمكين العامل من المساهمة في ارباح المعمل ، وتمكين الفلاح من الارض ، والقضاء على الاقطاعية ، ولو كانت اقطاعية الدولة، وتمكين المواطن العربي من نتيجة استرجاع الثروة والسيطرة عليها، لا بمنح الفرص لبعض المحظوظين لاكتساب المال ، ولكن برفع مستوى المواطن في العيش والعمل والفكر .

الثورة الاقتصادية هي الاخرى فاشلة حتى الان لانها لم تستجب لحاجات الشعب ، ولم تحقق الهدف منها لرفع مستواه ، ولذلك لم يكن هناك تجاوب وتفاعل بين المثقفين العرب والثورة الاقتصادية ،الا بعض مظاهر التفاعل السلبي حينما يهجو نزار قباني مثلا امراء البترول وحينما يعرض بعض الشعراء والقصاصين باغنياء الصحراء.

ولكن الثورة الاجتماعية التي حققتها الشعوب العربية بنفسها هي الثورة السليمة التي لم تفشل ، ولو انها لم تحقق بعد كل اهدافها .

من السهل أن نرصد مظاهر هذه الثورة التي قطعت من عمرها نحوا من ثلاثة أرباع القرن فاتخذت من الحرية شعارها الاول : حرية الفكر من التعبد للخرافات والاساطير ، حرية المرأة من العبودية للرجل وللتقاليد وللجهل والتخلف والرق ، تحرر الفلاح من استعباد الاقطاعيين ومستعمري الارض ، تحرر العامل من استعباد رأس المال وارباب المعامل ، تحرر الطفل من الجهل والتشرد والاستغلال ، تحرر الانسان من البطالة والتشرد ، تحرر الطبقة المستضعفة من طغيان الطبقات الغنية والاقطاعية والحاكمة .

شعار الحرية هذا دفع بالثورة أن تخوض المعركة في عنف ضد خصوم اقوياء ممثلين في الرجعية الفكرية ، والاقطاعية الوطنية ، والاستعمار والمتعاونين معه ، والرأسمالية الاجنبية والقومية . وان تخوض المعركة ضد التمزقات الاجتماعية التي كانت تهدد وحدة الشعب ووحدة البلد الواحد فضلا عن وحدة الوطن العربي . كانت الطائفية والعشائرية ، والقبلية وصراع البداوة والحضارة في الجزيرة والعراق وليبيا مثلا ، والريف والحضر في مصر ، والبربر والعرب في شمال افريقيا ، والاكراد والعرب في العراق والشام ، والزنوج والعرب في السودان والاقليات والطوائف في لبنان والشام .

كانت المعركة لتحرير الانسان العربي من رواسب التخلف والاستعمار ، وتحرير المجتمع من العراقيل التي توضع في طريقه وتقوية القومية والطائفية والدينية .

هذه الثورة كان لها ضحايا ،وكانت لها انتكاسات ، ولكنها مع

ذلك نجحت ، رغم انها لم تحقق بعد كل اهدافها ، لانها استقطبت مناضلين من مختلف فئات المثقفين . يمكن ان نقول : ان الحكم الوطني في البلاد العربية لم يساهم مساهمة فعالة او رائدة في هذه الثورة وعلى الاخص في بدايتها ، بل ان الحكم الرجعي في بعض البلاد العربية كان ضد تحرير الفلاح او العامل مثلا ، وكان ضد التخلص من بعض الخرافات الطائفية او المذهبية بصبغة دينية او الاجتماعية التي تشد الانسان العربي الى وراء ، كما كان الحكم الاستعماري مصدرا مهما للتمزقات الوطنية والاجتماعية ولاثارة النعرات القبلية والعشائرية والطائفية . لهذا كان المثقفون هم عمدة الثورة الاجتماعية التي نبعت عن الثورة الفكرية ، والتي قامت ضدا على الحكم الاستعماري والحكم الوطني الرجعي معا .

والمثقفون ايضا كانوا عمدة الثورة في أعطاء البديل للتمزقات الاجتماعية ، فكانت ثورتهم تحمل شعارات حضارية : العدالة والمساواة والوحدة ، والحرية والديمقراطية السياسية والتعادلية الاقتصادية والاجتماعية ، فكان تطور المرأة مثلا نابعا من مبدأ المساواة والعدالة، وكانت الدعوة الى الاصلاح الزراعي والقضاء على الاقطاع نابعة عن التعادلية والعدالة الاجتماعية ، وكانت الثورة ضد الطائفية والقبلية والسلالية نابعة عن الفكرة الوطنية والوحدة القومية . وهكذا كانت هذه الشعارات بديلا فكريا اجتماعيا ، وهو الذي اوجد التحول الجذري في المجتمع العربي ، واعطى لهذا التحول الاسس الحضارية التي يقوم عليها .

هناك اذن تفاعل بين المثقف العربي والثورة الاجتماعية ، تفاعل خلق وتأثير . ولهذا كانت هذه الثورة بناءة متطورة لان المثقفين بما لهم من تأثير ونفاذ في التوعية الشعبية كانوا يرعون هذه الثورة ويبعثونها على التطور .

والاديب العربي في مقدمة فئات المثقفين الذين تجاوبوا مع الثورة الاجتماعية وتأثروا بها بمقدار ما اثروا فيها .

صدر هذا التفاعل ـ او التأثر ان صح التعبير ـ من منطلق مهم هو ان الاديب العربي تخلص من النظرة القديمة للادب فلم يعد الادب تعبيرا عن المشاعر الفردية ،ولا اجترارا لاحلام المراهقة ، ولا رصفا للكلمات ومباراة في البلاغة الاسلوبية ، ولا خطابة منبرية تستهدف اثارة المشاعر الآنية عن طريق الكلمة المرعدة او الوترية ، ولكن الادب اصبح تعبيرا عن التفاعل بين الاديب والمجتمع ، فكانت اولى خطوات هذا التعبير التعرف على المجتمع في تحركاته ، وكانت ثانية الخطوات التفاعل مع هذا المجتمع بتوضيح الطريق نحو الثورة الاجتماعية ومسايرة هذه الثورة وتعهدها بتعميق المفاهيم الثوريه وتحليلها ووضعها في الاطار الادبي في مختلف فنون التعبير من قصيدة وقصة ورواية ومقالة ، ووقوف الادب الى جانب الشعب وهو يخوض ثورته الاجتماعية للتخلص من رواسب التخلف والاستعمار .

لا اريد ان اتتبع هذا التفاعل في الوطن العربي جميعه ، فذلك يتطلب بحث التجارب المتشابهة المختلفة معا للتطور الاجتماعي في البلاد العربية جميعها . وما من شك في ان كلا منها خاضت تجربتها الاجتماعية تتفق او تختلف قليلا او كثيرا عن تجارب البلاد الاخرى ويتفق التفاعل بين الاديب والتجربة الاجتماعية او يختلف قليلا او كثيرا عن البلد الاخر ، ولكنه ـ مهما يكن ـ متنوع تنوع هذه التجارب وانما سأحاول ان اقتصر على التفاعل بين الاديب والمجتمع في المغرب، لا ايمانا مني باقليمية الادب العربي فهو ادب واحد ، ولا باقليمية المجتمع العربي فهو مجتمع متشابه ان لم يكن موحدا ، رغم اختلاف الظواهر الناتجة عن تأثير البداوة او الفلاحة عن الري او انتظار المطر، والناتجة عن الطائفية او بقايا العنصرية ، والناتجة عن تأثير نظم الحكم القديمة التي اختلفت في بعض البلاد ـ فكانت تركية او اجنبية تستمد وجودها من الترك ـ عنها في البعض الاخر فكانت وطنية ، والناتجة عن تأثير الاستعمار اللاتيني او الانجلو ساكسوني الخ .. ولكني سأحاول الاقتصار على النموذج المغربي لاعتقادي انه يمثل الى حد ما النموذج العربي ، ولان الدراسات الاخرى لو تناولت هذا الموضوع في الاقطار الاخرى لكان هناك تكامل في البحث يمكن ان يجيب عن هذا التساؤل الكبير : التفاعل بين الاديب العربي والتطور الاجتماعي.

التطورات الاجتماعية في المغرب اجتازت في اربعين سنة الماضية مرحلة جذرية ، ذلك لانها ارتبطت بالتطورات السياسية وبالنضال في سبيل الحرية . الحركة الوطنية التي تزعمت النضال ضد الاستعمار الفرنسي والاسباني كان لها مفهوم كامل للحرية ، فلم تكن تفصل حرية المواطن الفكرية والاجتماعية عن حريته السياسية ، كما لم تكن تفصل الاستعمار السياسي عن الاستعمار الاقتصادي والاجتماعي والفكري، وساعدها على تعميق هذه الشمولية في النضال لدى المواطن المغربي ان الاستعمار اللاتيني : الفرنسي والاسباني استعمار استيطاني فكري انتقل من الشاطيء الشمالي للبحر الابيض الى الشاطيء الجنوبي بجيشه وادارته ولغته وفلاحيه واقتصادييه ورجال الاعمال في حملة هكسوسية لو قدرت لمحقت الانسان المغربي كما فعل المهاجرون الاوربيون الى امريكا الشمالية والجنوبية. وبقدر ما كان اثر هذه الحملة قويا في تعميق التخلف الاجتماعي والاقتصادي في الشعب المغربي وبقدر ما حاول تمزيق المجتمع على اساس سلالي : عرب وبربر ، بقدر ما اتيحت الفرصة للحركة الوطنية لتعميق الوعي بين المثقفين وعموم الشعب لاستئصال جذور هذا التخلف وللنضال لتحرير الانسان المغربي من مختلف مظاهره ، ولتعميق الوحدة القومية بين العرب والبربر .

الفقر في المجتمع الريفي بالمغرب مثلا لم يكن ناشئا عن فقر الارض المغربية . المغرب يتمتع بأرض غنية كانت تصدر انتاجها قبل الاحتلال الفرنسي والاسباني ، وقوي الانتاج وازداد التصدير بعد الاستعمار . ولكن مع هذا الغنى كان هناك فقر واضح مصدره اغتصاب الارض من الفلاح ونشوء اقطاعيات كبيرة بين المستعمرين الفرنسيين والمتعاونين الذين ارتموا في احضان الفرنسيين .

أصبح هناك اذن مجتمعان : مجتمع الاقطاعيين ومجتمع عبيد الارض الذين يقدمون حياتهم في خدمة الارض ، ولكن انتاجهم لغيرهم ،فهم لا يملكون .

والفقر في المجتمع الحضري مثلا ناشيء عن ظاهرتين :

اولاهما : الهجرة الكبيرة من الريف الى المدن هروبا من البطالة وبحثا عن عمل . والهجرة من الفقر كانت للفقر ، فبالاضافة الى ان المستعمرين كانوا يكونون طبقة من العمال ـ وخاصة المهنيين ـ كان المهاجرون من الريف اكثر مما تحتملهم الصناعة او تحتويهم المدن ، فكانوا يعيشون على هامش العمل لانهم لا يجدون . ويعيشون على هامش المدن لانها لا تحتملهم ، وهم لا يحتملون ضيقها وغلاء الحياة فيها، وتكون ما يسمى بمدن القصدير ، وهي بؤرة خطيرة لكل مظاهر البؤس الذي تنتفي معه الكرامة الانسانية احيانا .

والظاهرة الثانية للفقر في المجتمع الحضري ان الغزو الاستعماري حمل معه غزو الصناعة الاجنبية ، وفسح لها اداريا مجال الغزو، فكانت ادعى للاستهلاك ، وبذلك انهار المجتمع الحضري او طبقة البرجوازية الصغيرة منه التي كانت تعيش على الصناعات الحرفية والاتجار فيها . ولم يقدم الاستعمار لها البديل لسبل الحياة ،فكان انهيارها يحمل البؤس للانسان الذي يعيش في المدينة .

اصبح هناك اذن مجتمعان او طبقتان اجتماعيتان : الاقطاعية التي انشأها وحماها الاستعمار ، والطبقة الكادحة التي تعيش مناضلة في سبيل العمل ومطاردة البؤس . وظهرت في المدن الكبيرة التي خلفت المدن التاريخية للمغرب طبقة بورجوازية تعيش على فتات الطبقة

الاقطاعية ، وهي التي تكون الطبقة الوسطى ، ولكنها كانت تعيش على الصدفة ، لافقار اقتصادي أو اجتماعي لحياتها ، فهي تصبح من الطبقة الفقيرة كلما اقتضت مصلحة الاستعمار تفقيرها ، وقد يصبح بعض افرادها من الاغنياء اذا كان من مصلحة الاستعمار كسب بعض المتعاونين . ولهذا فهي لا تكون شريحة اجتماعية بالمفهوم الاقتصادي والاجتماعي .

وقد استمر هذا الوضع في خطوطه العامة في المجتمع المغربي بعد الاستقلال ، يمكن ان يكون قد تغيرت بعض ملامحه او اشخاصه ، ولكن جذوره العميقة ما تزال قائمة : لان الطبقة البورجوازية الصاعدة ورثت الهياكل الاقتصادية التي انشاها الاستعمار . ولان مفهوم التنمية الاقتصادية لم يتغير نتيجة لعدم تغير مفهوم الحكم الذي لم يحاول ان يقضي على البنيات الاقتصادية والاجتماعية والادارية التي اسسها الاستعمار ، او يجتثها من اصولها ليبني على اساسها بنيات جديدة، وانما تبناها وربما على اساس الاصلاح البطيء والترميم .

الثورة الفكرية والسياسية التي قامت بها الحركة الوطنية كانت تعمل على التوعية بالاسباب العميقة لهذا الوضع الاجتماعي ، اسباب اقتصادية في جوهرها متخلفة عن وضع استعماري وعن التخلف في الحكم الوطني قبل الاستعمار وبعد الاستعمار . وهذه الثورة هي التي اوجدت التفاعل الذي نلحظه بين الادب العربي والتطور الاجتماعي في المغرب .

وقد يكون من حسن حظ الادب أن كثيرين من المثقفين صعدوا من الطبقة المناضلة اجتماعيا او سياسيا . فهم منتمون في تفكيرهم لطبقتهم : وهم متجاوبون مع التطور الذي يشهدونه بأنفسهم ويشاركون فيه بمحاولتهم أن يكون تطورا ايجابيا لصالح الطبقة الكادحة .

حينما عاشت قصائد وانا‌شيد الشعراء مع الوحدة القومية ضد الفكرية البربرية التي ابتدعها الاستعمار في الجزائر اولا ثم في المغرب وحينما عاشت بعض قصائد المرحوم علال الفاسي مع الفلاح مثلا ، او بعض قصائد محمد الحلوي مع ماسح الاحذية والمعذبون وحينما عاشت رواية « المعلم علي » لعبدالكريم غلاب مع نضال الطبقة الكادحة في سبيل القوت والحرية ، وعاشت رواية « الطيبون » لربيع مبارك مع ضحايا الارض المسروقة وعاشت بعض قصص مجموعة « وادي الدماء » لعبد المجيد بن جلون ، « والممكن من المستحيل » لعبد الجبار السحيمي، و« السقف » لمحمد باعلو وقصص محمد بيدي « والارض حبيبتي » و « مات قرير العين » لعبدالكريم غلاب مع ضحايا اغتصاب الارض وضحايا الاقطاعية المتحكمة التي تلجيء الانسان الى البحث عن كرامته المهدورة في حواري المدن او منعرجات الدواوير القصديرية على هامش المدن ، أو في احراش الريف باحثا عن الارض التي اغتصبت او مناضلا حتى الموت في سبيل استرجاعها ، حينما عاش هذا الادب وغيره كثير مع هذا الوضع الاجتماعي لم يكن تجاوبا وصفيا مع واقع، او تسجيلا لمرحلة اجتماعية على غرار ما كان الشعر والادب العربي عموما في الربع الاول من هذا القرن ، وانما كان ادبا متفاعلا مع المجتمع ومع تطوره نحو الافضل .

اقصد بالتفاعل انه لم يكن مواكبا للتطور الاجتماعي ولا ادبا وصفيا تسجيليا يعيش على ملاحظة الواقع ، ولكنه ادب ثوري يحاول ان يهدم الاسس التي قام عليها المجتمع الذي اصطنعه الاستعمار ، والذي وضع فيه الطبقة المنتجة في اسفل السلم حينما سلبها الارض وملكية كل وسائل الانتاج ليجعل منها طبقة العبيد تخدم الطبقة المستفيدة . واعتقد انه نجح في هذا التفاعل فكان اصدق تعبير عن الثورة الفكرية التي استهدفت تطور المجتمع ولذلك يكون الادب قد قام بدوره كرائد في الثورة والتطور . واحب ان تلاحظوا انني لا اصدر الان احكاما قيمية نقدية بالمعنى الادبي للنقد . ولكنه تقويم ذو موضوع خاص هو التفاعل بين الاديب وتطور المجتمع .

والحرية التي انارت طريق الاديب المغربي ليعمق الشعور بالنضال ضد التمزق القومي وضد الفقر والاستغلال واغتصاب الارض هي التي انارت الطريق امامه ليرى ـ مثلا ـ في وضعية المرأة اغتصابا لحريتها . ولذلك كان الشعر ، اكثر من البحث أو من مقالات وكتب الدعوة على غرار ما فعل قاسم أمين في مصر ، يتجاوب مع موضوع حرية المرأة ، وتمكينها من حظها في الحياة العلمية والاجتماعية وكان الشعر ايضا يعانق الدعوة الى تعليم الشعب ويناضل مع المناضلين للقضاء على الميز الذي اصطنعه الاستعمار وهو ينشيء المدارس لتعليم ابناء الجالية الاجنبية ويسد الباب في وجه ابناء المواطنين المغاربة . وكان الشعر ايضا يخوض معركة تحرر الفكر من الخرافات والاضاليل التي التصقت به من عهد التخلف وشجعها عهد الاستعمار باعتماده على رجال الطرق وادعياء الدين . خاض الشعر المعركة الى جانب النثر الذي كان يستهدف توضيح اسس الاسلام حتى يكشف عن زيغ ضلال الفكر . وكان الشعر في مرحلة البداية (اوائل الثلاثينات) يأخذ سبيل الهجوم المزدوج على التخلف الفكري ودعاته من عملاء الاستعمار وهو بذلك يهاجم الاستعمار نفسه ، لان كل دعوة للتحرر الفكري والاجتماعي هي في الوقت نفسه دعوة للتحرر السياسي . فالتحرر قيمة لم تكن تقبل التجزيء في نظر الادباء المناضلين الثوريين .

وكانت المسرحية منذ بداية حركة المسرح في المغرب اواخر العشرينات في طليعة الادب الذي انفعل مع التطور الاجتماعي ، عالج مشاكل البؤس واستغلال اقوياء المال والنفوذ والسلطة للطبقة المستضعفة . كان المسرح يلجأ الى التاريخ او الى الروايات المترجمة ولكنه كان يرتد سريعا الى الواقع المغربي ليعالج مشاكل المجتمع من قضايا الزواج والطلاق والايتام والاوصياء الى قضايا العدالة الاجتماعية واستغلال النفوذ .حتى النماذج التي قدمها من التاريخ او من المسرح المترجم كان يصوغها صياغة مغربية فيبقى الهيكل اجنبيا او تاريخيا ، ولكن المضمون كان اجتماعيا مغربيا .

لا أريد أن أقدم الامثلة من الشعر او الرواية والقصة والمسرح ففي استطاعة اعضاء المؤتمر ان يعودوا الى النماذج المنشورة والى التحليلات التي كتبت عن تطور الحركة المسرحية في المغرب ، ولكن اردت فقط ان اسجل هذه الظاهرة المهمة في الادب المغربي الحديث وهي التصاق الادباء الثوريين بالمجتمع ، وتفاعلهم الايجابي مع الظواهر التطورية ، والتفاعل الايجابي الذي كان الادب فيه طليعة الثورة الاجتماعية بمقدار ما كان اغلبية الادباء في طليعة الثوريين على الاوضاع السياسية والاجتماعية في المغرب .

صدر حديثا عن دار الطليعة
في سلسلة « الفكر العربي »

اللاعقلانية في السياسة

نقد السياسات العربية في المرحلة ما بعد الناصرية

ياسين الحافظ

السياسة هي فن تحريك الاشياء والبشر . واذا تأملنا ضخامة ما لدى العرب من اشياء وبشر ، وفي نفس الوقت العجز عن تحريك هذه الاشياء وهؤلاء البشر لصالح الامة العربية ، يتضح لدينا التأخر الذي يسم السياسات العربية ، تأخر تتكشف صورته المأساوية والمذهلة اذا تذكرنا قزامة العدو الاسرائيلي . وهذا الكتاب محاولة لالقاء الضوء على مأزق السياسة العربية في هذه المرحلة ، ولالتقاط بعض تظاهرات التأخر في البنية السياسية العربية ، ولوضع بعض صور لرؤية صاحية على الصعيد السياسي .